الفصل الثامن

دلائل الإعجاز للجرجاني
[ت 471]

التعريف بالمصنف:

الجرجاني هو عبد القاهر أبو بكر بن عبد الرحمن الجرجاني، ينسب إلى جرجان وكانت مدينة طبرستان وخراسان كما يذكر ياقوت في معجمه وكانت جرجان آنذاك إمارة زيادية تحت حكم شمس المعالي قابوس بن وشمكير الذي برع في اللغة العربية وآدابها كذلك.

عاش عبد القاهر في جرجان فترة الصراع السياسي بين الطامعين في الملك والتي أودت بحكم الزياديين واستيلاء السلاجقة على جرجان سنة 433هـ، وفي هذه الأثناء انصرف أغلب العلماء والأدباء إلى العلم والمعرفة، واندفع معهم عبد القاهر في التزود بتلك الثقافة العريضة التي خلقتها القرون الأربعة السابقة. فكان أمامه رصيد ضخم من المؤلفات الأدبية واللغوية، ومن المؤلفات التي تبحث في شتى المسائل المتصلة بالعقيدة والقرآن.

والباحث في مؤلفات عبد القاهر الجرجاني يستطيع أن يرى تأثير هذه المؤلفات وخاصة مؤلفات الجاحظ (ت255هـ) ووساطة أبي الحسن الجرجاني (ت312هـ) وصناعتي أبي هلال العسكري (ت395هـ) وغيرهم.

خصائص مصنفاته:

وتتميز أغلب مؤلفات الجرجاني بالشخصية المتميزة والمنهج الواضح، كما تتميز مؤلفاته في البلاغة خاصة بالنظرة الجديدة في الفكر المتناول والمنهج الجديد في النظر إلى هذا الفكر. ولعبد القاهر الكثير من المؤلفات في النحو والعروض وعلوم القرآن وبلاغته الأدبية بشكل عام.

فمن مؤلفاته في النحو والعروض:

1- المغني وهو شرح مفصل على كتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي، ثم أعاد عبد القاهر اختصاره وسماه المختصر.

2- التكملة في النحو.

3- العوامل المائة في النحو.

4- العمدة في التصريف.

5- العروض.

ومن مؤلفاته في التفسير وإعجاز القرآن:

1- المعتضد وهو شرح لإعجاز القرآن للواسطي المتوفى سنة 306هـ.

2- الرسالة الثانية في الإعجاز.

3- شرح سورة الفاتحة.

ومن مؤلفاته في الأدب والنقد والبلاغة:

1- المختار من دواوين المتنبي والبحتري وأبي تمام.

2- دلائل الإعجاز.

3- أسرار البلاغة.

وكتاب دلائل الإعجاز واحد من سلسلة كتب بدأت من القرن الثالث الهجري قصد من تأليفها البحث في الأسلوب القرآني لبيان خصائصه الجمالية والوصول إلى مناط الإعجاز فيه، ومن هذه المؤلفات: معاني القرآن للفراء (ت207هـ) ومجاز القرآن لأبي عبيدة بن معمر بن المثني (ت208هـ) والنكت في إعجاز القرآن لعلي بن عيسى الرماني (ت386هـ) وإعجاز القرآن للباقلاني (ت403هـ) وغيرها.

قضية الإعجاز في القرآن:

ولا شك في أن عبد القاهر قد استفاد في كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز من التأليفات الكثيرة التي تعرض لآراء مؤلفيها في كتبه وناقشها معارضا إياها غالبا ومتفقا في بعض الأحيان.

لقد ذهبت أغلب هذه المؤلفات إلى أن الإعجاز في القرآن إعجاز بالصرفة، وأن صرف الله العرب عن الإتيان بمثله دليل على أن القرآن من عنده، وفي هذا يتفق النظام (ت221هـ) والرماني. وذهب الباقلاني إلى أن الإعجاز في القرآن ناشئ عن الإخبار بالغيوب مع بديع النظم والتأليف، وهو في قوله الأخير ببديع نظم القرآن يتفق مع الخطابي الذي رفض القول بالصرفة، ورأى أن سر البلاغة وبلاغة القرآن في أنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظام من التأليف للتعبير عن أحسن المعاني.

نظرية الإعجاز عند عبد القاهر:

ومن هذا الاستنتاج الأخير انطلق عبد القاهر الجرجاني موضحا رأيه في الإعجاز، وإن الإعجاز في القرآن خاصة، وإن كانت المباحث التي تعرض لها في نظرية النظم مباحث تصلح أساسا لأن تكون نظرية خاصة في فهم الشعر وتذوقه.

رأى عبد القاهر "أن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض".

فالألفاظ عنده إذن كألفاظ مفردة لا تدل على معنى محدد، وإنما تدل على المعنى المحدد إذا استخدمت في سياق، فالسياق هو الذي يعطي القيمة لكل جزئياته، ولا قيمة للجزئية خارج نطاق سياقها.

وهذا هو أساس نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني التي بنى عليها مفهومه للبلاغة التي رآها في حسن دلالة الكلام على معناه، أما ما نراه من استعارات وكنايات وتمثيل ومجاز وغيرها فهي لا توصف بالجمال أو القبح في حد ذاتها ذلك لأنها من مقتضيات النظم، عنه تحدث وبه تكون.

وعلى ذلك فمحال أن يقع الإعجاز في ألفاظ لا يسلكها نظم.

هذا وقد تعرض عبد القاهر من خلال نظريته في النظم لموضوعات عديدة متصلة بالنظم والبلاغة، مثل المعاني الشعرية والموازنات بين الشعراء والذوق البلاغي، ومحاولة تفسيره وبعض الوجوه البلاغية في التقديم والتأخير والحذف والفصل والوصل والمجاز والتشبيه والاستعارة والكناية.

واستطاع من خلال هذه المباحث أن يقدم إضافاته الرائعة إلى البلاغة العربية والنقد العربي كذلك، حيث استطاع بحسه الفني أن يدرك علاقة الترابط الحسي بين اللفظ والمعنى في اللغة وفي الأدب، وبهذا ألمح إلى النظرة الخاطئة للعمل الأدبي التي كانت تقوم عند بعضهم على المعنى وعند بعضهم الآخر على الشكل، لأننا في

اللغة العادية لا نفكر إلا من خلال ألفاظ، كذلك فلا تصور لوجود ألفاظ نلفظ بها ليست مرتبطة بمعنى تريد أن تعبر عنه. يقول عبد القاهر "فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق" فالعلاقة هنا من ثم علاقة متلازمة.

وكذلك في الأدب لا يمكن تصور المعنى أو الشكل فيه مستقلا أو من خلال علاقة متتالية، لأن الأدب بناء تلقائي متلازم يمكن فيه أن يرد الفصل أو المزية إلى صفات شكلية في الألفاظ في حد ذاتها، ولا إلى معاني قائمة خارج هذه الألفاظ، وإنه كما يقول عبد القاهر "ليس من فضل أو مزية إلا بحسب الموضع، وبحسب المعنى الذي تريد، والغرض الذي تؤم".

ولم يكتف عبد القاهر في كتابه دلائل الإعجاز بالجدل النظري فقط، بل أثبت من خلال نقده التطبيقي العديد من مختاراته الشعرية والنثرية وبعض آيات القرآن الكريم قدرة تذوقية للعمل الأدبي وحساسية فنية في الاستجابة لما توحي به عناصر العمل الأدبي من إحساس ومشاعر.

مصادر ومراجع

1- د.أحمد أحمد بدوي: عبد القاهر الجرجاني.

2- الباخرزي: دمية القصر وعصرة أهل العصر.

3- ابن خلكان: وفيات الأعيان.

4- د.السعيد بيومي الورقي: في مصادر التراث العربي.

5- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز.

6- د.محمد زكي العشماوي: قضايا النقد العربي المعاصر.

7- ياقوت الحموي: معجم الأدباء.

نموذج من كتاب دلائل الإعجاز

"ومِمَّا يَجِبُ إحْكامُهُ بعَقِبِ هَذا الفصْلِ: الفرقُ بينَ قَولِنا: حروفٌ منظومَةٌ، وكَلِمٌ مَنْظومَةٌ؛ وذَلكَ أنَّ نَظْمَ الحُرُوفِ هُوَ تَواليها في النُّطْقِ فَقَطْ وليْسَ نَظْمَها بمُقْتَضًى عَنْ مَعْنًى، ولا النَّاظِمُ لها بمُقْتَفٍ في ذَلِكَ رَسْمًا مِنَ العَقْلِ اقْتَضَى أنْ يَتَحَرَّى في نَظْمِه لها ما تَحَرّاه. فلوْ أنَّ واضِعَ اللغةِ كانَ قَدْ قالَ ((رَبَضَ)) مَكان ((ضَرَبَ)) لِمَا كانَ في ذَلِكَ ما يُؤَدِّي إلَى فَسادٍ.

وأمَّا نَظْمُ الكَلِمِ فَلَيْسَ الأمْرُ فِيهِ كَذَلِكَ، لِأنَّكَ تَقْتَضِي فِي نَظْمِها آثارَ المعانِي وتُرَتِّبُها عَلَى حَسْبِ تَرْتِيبِ المعانِي فِي النَّفْسِ، فَهُوَ إذا نُظِمَ يُعْتَبَرُ فِيهِ حالُ المَنْظومِ بَعْضُهُ مَعَ بعضٍ وَلَيْسَ هُوَ النَّظْمَ الَّذِي مَعْناهُ: ضَمُّ الشَّيْءِ إلَى الشَّيْءِ كَيْفَ جَاءَ واتَّفَقَ، وكَذَلِكَ كانَ عِنْدَهُم نَظِيرًا للنَّسْجِ والتَّأْلِيفِ، والصِّيَاغَةِ والبِنَاءِ، والوَشْيِ والتَّحْبِيرِ، ومَا أشبَهَ ذلِكَ مِمَّا يُوجِبُ اعْتِبارَ الأجْزاءِ بَعْضَها مَعَ بَعْضٍ، حتَّى يَكونَ لِوضْعِ كُلٍّ حَيْثُ وُضِعَ عِلَّةٌ تَقْتَضِي كَوْنَهُ هُنَاكَ، وَحَتَّى لَوْ وُضِعَ في مكانٍ غَيْرِه لَمْ يَصِحّ".

[ص40، ط4، دار المنار، 1367هـ]

****

يفرق عبد القاهر هنا بين النظم في الحروف والنظم في الكلم، فيرى أن نظم الحروف هو توالي هذه الحروف في اللفظة

على النحو المنطوق، وهذا النظم لا مزية فيه ولا حكم عليه، لأنه نظم اصطلاحي وقد كان من الممكن أن يأتي خلاف ما هو عليه.

أما نظم الكلم فهو جد مختلف لأنه سياق يتحرك ويموج بالمشاعر والانفعالات؛ ويؤدي في النهاية إلى وظيفة ما، فتصبح قيمة كل لفظة هنا بمقدار ملاءمتها في سياقها.